خطبة صلاة الجمعة 27/ 3/ 2015 للشَّيخ الطَّبيب محمَّد خير الشَّعَّال, في جامع أنس بن مالك، دمشق – المالكي

(الصدق)

الحمد لله، الحمد لله ثمَّ الحمد لله، الحمد لله نحمده ونستعين به ونستهديه ونسترشده، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيِّئات أعمالنا، من يهدِهِ الله فهو المهتَدِ، ومن يضلل فلن تجد له ولياً مُرْشِداً، وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أنَّ سيِّدنا محمَّداً عبده ورسوله، وصفيُّه وخليله، خيرُ نبيٍّ اجتباه، وهدىً ورحمةً للعالمين أرسله، أرسله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدِّين كلِّه ولو كَرِه الكافرون، ولو كَرِهَ المشركون، ولو كَرِهَ مَن كَرِه، اللَّهم صلِّ على سيِّدنا محمَّدٍ وعلى آله وصحبه وسلِّم.

أمَّا بعد: فيا عباد الله، أوصيكم ونفسيَ بتقوى الله تعالى، وأحثُّكم وإيَّاي على طاعته، وأستفتح بالذي هو خير.

قال الله تعالى: ﴿ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: 90].

قَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ: (هَذِهِ أَجْمَعُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ لِخَيْرٍ يُمْتَثَلُ، وَلِشَرٍّ يُجْتَنَبُ).

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«مَا مِنْ شَيءٍ يُوضَعُ فِي المِيزَانِ أَثْقَلُ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ صَاحِبَ حُسْنِ الْخُلُقِ لَيبلُغُ بِهِ دَرَجَةَ صَاحِب الصَّوم وَالصَّلاةِ»** [الترمذي].

أيها الإخوة:

هذ هي الخطبة العاشرة في سلسلة خطب عنوانها (**فضيلة... أخلاق تعاملية**)، بإمكانك التدرب على الخلق الحميد لتكتسبه، وبإمكانك التخلي عما علق بك مما لايليق بمثلك. وهذا هدف السلسلة.

عنوان خطبة اليوم: (**الصدق**)

اسمحوا لي أن أبدأ خطبتي عن الصدق بقصة عنوانها: مدينة الكذابين، وهي قصة متخيلة رواها الأستاذ عبد الرحمن حسن حبنكة في كتابه النفيس: (الأخلاق الإسلامية وأسسها).

تقول القصة:

كذَّاب ساقته أقداره إلى مدينة الكذابين دون أن يعلم شيئاً عن حقيقتها ولا عن حقيقة من فيها، وحين وصل إليها وجد نفسه شديد الجوع، مُنهَك القُوى، قلق النفس، مضّطرب الفؤاد، يريد طعاماً ومناماً وطمأنينة.

بحث عن مطعم ليأكل فيه، وعن فندق يأوي إليه، وقال في نفسه: سؤال أهلِ المدينة أقربُ طريق يوصلني إلى مقصدي، رأى رجلاً وسيماً، فقال له: يا سيدي، هل تعرف مطعماً نظيفاً جيدَ الطعام ترشدني إليه، فإني غريب؟ فقال له الرجل: امضِ في هذ االشارع، فإنك ستجد بعد نحو نصف ميل منعطفاً على اليمين، فتابع المسير في هذا المنعطف فإذا سرت نصف ميل آخر وجدتَ المطعم الذي يسرُّك. قال: فما اسم هذا المطعم؟ قال: اسمه "مطعم الليل الضاحي".

سار الرجل وفق البيان الذي تلقاه، وأخذ يبحث عن مطعم الليل الضاحي، فلما قطع المسافة الأولى لم يجد منعطفاً على اليمين، إلا أنه وجد منعطفاً على الشمال، فمضى لعله يجد منعطفاً على اليمين، إلا أنه لم يجد، وقد كاد يصل إلى آخر المدينة، فرجع أدراجه وقال في نفسه: لعل الرجل قد أخطأ فأخبرني أن المنعطف على اليمين وهو يريد أن يقول لي: إن المنعطف على الشمال!!

فرجع وسار في المنعطف الذي على الشمال حتى بلغ آخره، ولم يجد مطعم الليل الضاحي، وعندئذ استوقف رجلاً عجوزاً فقال له: يا سيدي، أنا رجل غريب، وإنني أبحث عن مطعم وفندق، وقد سألت في طريقي رجلاً وسيماً، فدلني على مطعم الليل الضاحي في هذا الشارع، وأخبرني أنه مطعم نظيف جيد الطعام، وأنا أبحث عنه منذ ساعة، فلم أعثر عليه، فضحك العجوز ضحكةً هرمةً مضرسةً خبيرة، وقال له: إنَّ مطعم الليل الضاحي في أقصى المدينة الشرقي، إلا أنك إذا وصلت إليه وجدت مكتوباً على عتبة بابه: مركز إطفاء المدينة.

فسأله عن مطعم آخر، فقال له: ليس في الناحية مطعم ولا فندق، وكل مطاعم المدينة وفنادقها في أقصاها الشرقي، فاركب في هذه المركبة العامة، وانزل في محطة نفق الأنفاق، فهناك أقصى المدينة الشرقي، وهناك تجد طلبك!!

استجاب الرجل سريعاً إلى نصيحة الرجل العجوز، فركب المركبة قاصداً محطة نفق الأنفاق، ثم أخذ يسأل في المركبة وهي سائرة عن المحطة فيضحك الناس من سؤاله، فقال: أليست هذه المركبة سائرةً إلى أقصى المدينة الشرقي فاستغرقوا في الضحك، وهم يقولون: بل هي سائرة إلى أقصى المدينة الغربي!!

فنادى: يا أيها الناس، دلوني على مطعم وفندق، فإني غريبٌ جائعٌ منهكُ القُوى، فجعل كل واحد منهم يدلُّه دلالة مخالفة لدلالة الآخرين، وحار في أمره، وضاق ذرعاً بنفسه وبكل من حوله، ثم رمى

بنفسه من المركبة وانطلق هائماً على وجهه، وخرج من المدينة وهو يقول: لعن اللهُ الكذبَ والكذَّابين، وإنَّ مجتمعاً يسود فيه الكذبُ مجتمعُ عذابٍ وشقاء. وأعلن توبته من الكذب وأدرك ضرورة الصدق للمجتمعات الإنسانية، وكان دخوله إلى مدينة الكذَّابين سببَ توبته ووسيلةً تربويةً له.

أيها الإخوة:

الصدق: هو قول الحق، وهو القول المطابق للواقع والحقيقة.

والقرآن والسنة عامران بامتداح الصدق وذم الكذب كما تعلمون، سواء كان الصدق صدقاً مع الله أو مع الناس، وسواء كان الكذب كذباً لإضحاك الناس أو كذباً في الجِدّ معهم، وحسبكم أن الله تعالى قال: ﴿لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عَنْ صِدْقِهِمْ﴾ [الأحزاب: 8]، فإذا كان سبحانه سيسأل الصادقين عن صدقهم فما ظنكم بالكاذبين.

وحسبكم سَلْبُ الإيمان عن مُدمني الكذب كما جاء في الحديث الشريف: «يُطْبَعُ الْمُؤْمِنُ عَلَى الْخِلَالِ كُلِّهَا إِلَّا الْخِيَانَةَ وَالْكَذِبَ» [أحمد]، ودليله من القرآن ﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [النحل: 105].

وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: أيكون المؤمن جباناً؟ فقال: «نعم» فقيل له: أيكون المؤمن بخيلاً؟ فقال: «نعم»، فقيل له: أيكون المؤمن كذاباً؟ فقال: «لا». [الموطأ].

ولأنكم جميعاً تعرفون مذمَّةَ الكذبِ ومحمدَةَ الصدق، يهمني في الخطبة أن أخبركم كيف يتعلم الإنسان الكذب، إذ الإنسان مفطور على الصدق ولكنه يتعلم الكذب تعلماً، ثم يهمني أن أخبركم كيف يتخلص المرء من الكذب إن علق به – لاقدَّر الله–، وهذان، أعني كيف يتعلم وكيف يتخلص، هما محورا الخطبة.

المحور الأول: كيف يتعلم الإنسان الكذب؟

يتعلم المرء الكذب من ثلاث:

أولها البيئة: فالمولود يولد على الفطرة لايعرف الكذب، ولكنَّ من حوله يعلِّمونه، فعندما تقول الأم لولدها: سأعطيك ثم لا تعطيه، وعندما تضم يدها تدعوه إليها تغريه بما في يدها فيُقبل فلا يجد شيئاً، وعندما يعِد الأب أولاده بمكافأة إن هم فعلوا فيفعلون فلا يجدون، وعندما يرن الهاتف فيقول الأبُ: قولوا ليس هنا، وعندما تقول الزوجة للزوج ثمن هذه القطعة كذا وهي أقل من هذا الثمن والابن رآها عندما اشترت وسمعها عندما قالت... كل هذه المواقف تدريبٌ على الكذب وتعليمٌ وتمرين.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَامِرٍ، أَنَّهُ قَالَ: أَتَانَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي بَيْتِنَا وَأَنَا صَبِيٌّ، قَالَ: فَذَهَبْتُ أَخْرُجُ لِأَلْعَبَ، فَقَالَتْ أُمِّي: يَا عَبْدَ اللهِ تَعَالَ أُعْطِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **وَمَا أَرَدْتِ أَنْ تُعْطِيَهُ؟**» قَالَتْ: أُعْطِيهِ تَمْرًا، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: « **أَمَا إِنَّكِ لَوْ لَمْ تُعْطِيهِ كُتِبَتْ عَلَيْكِ كَذْبَةٌ** » [أحمد].

في التربية نظرية تسمى: نظرية المرآة، تقول: مهما أردت من ابنك أن يفعل أو لايفعل، أن يقول أو لا يقول، فضع المرآة أمامك وافعل وقل ما تريده أن يتبعك، وستجده يتبعك، فالابن مرآة أبيه والبنت صورة أمها.

وتكبر الفتاة ويشِبّ الفتى فإذا صحب أصحاباً صادقين قلَّدهم، وإذا صحب الكاذبين جاراهم، فالمرء ابن بيئته، ومن هنا قال القرآن الكريم: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ ﴾ [التوبة: 119].

فالبيئة أول ماتعلم المرء الكذب وتدربه عليه، سواء كانت بيئة المنزل أو بيئة الأصحاب والعمل.

وثانيها الاعتياد بتكرار الخبرات: فمن كذب مرة ثم أتبعها ثانية ثم كررها ثالثة تدرَّب على الكذب وتمرَّس عليه، فالخير عادة والشر عادة.

أخرج الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **«عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البرّ، وإن البرَّ يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يَصدُق ويَتَحَرَّى الصِّدقَ حتى يكتبَ عند الله صدِّيقاً، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلي الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرَّى الكذب حتى يُكتَب عند الله كذَّاباً»**

والشاهد عند قوله عليه الصلاة والسلام **«يصدق»** بالفعل المضارع وهو يفيد التكرار والتجدد، وجاءت صريحة في قوله: **«يتحرى الصدق»** أي يبحث عنه ويفتش لينطق به ويعمل، وقل مثل ذلك في **«يكذب»** و**«يتحرى الكذب»**.

فمن كرَّر الصدق وكرره صار عادته، ومن تابع الكذب وتتابع عليه صار ديدنه.

قال العلماء: دلَّ هذا الحديث أيضاً على أن خلقَ الصدق قابلٌ للاكتساب عن طريق التدريب العملي المقترن بالإرادة الجازمة، ومن مظاهر الإرادة الجازمة تحري الصدق،فالمرء يتعلم الكذب من البيئة والاعتياد. وأما **الثالث الأخير فهو يتعلمه من مؤثرات الأهواء والشهوات**: فالنفس أمَّارة بالسوء والشهوات تدعو صاحبها إلى الموبقات، وعلى رأسها الكذب.

أيها الإخوة:

إذا كانت هذه الثلاثة تُعلِّم المرء الكذب – البيئة والاعتياد ومؤثرات الأهواء والشهوات- فما العلاج؟ ماذا يفعل من علق به من الكذب أو شيء منه؟ كيف السبيل للخلاص؟ وكيف الشفاء؟ وما الدواء؟

وهذا هو المحور الثاني في الخطبة: **كيف العلاج لمن علق به الكذب أو شيءٌ منه؟**

لاريب أن العلاج صار قريباً منكم، فهذه ثلاثة أسباب علاجها أضدادها.

فالبيئة الكاذبة: علاجها استبدال البيئة الصادقة بها، فمن أراد الصدق فعليه بملازمة أهل الصدق، ومن أراد الصلاح فعليه بملازمة أهل الصلاح، ومن أراد التقوى فعليه بملازمة التقاة، وإلا فمن غير المعقول ولا المقبول أن تطلب العسل من عش الزُنبور أو ترجو النبت من أرض بور.

ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إنَّ السفينة لا تجري على اليبس

والاعتياد على الكذب: علاجه بتكلف الاعتياد على الصدق، ولو أتعبك الصدق أولاً فإنه سيريحك آخراً، ولو خسرت من الصدق اليوم فإنك ستربح غداً.

وأما مؤثرات الأهواء والشهوات: فعلاجها بمجاهدة النفس وتأديبها وفطمها عن محابها فيما لايرضي الله تعالى.

ورحم الله البوصيري عندما قال في البردة:

والنَّفسُ كَالطّفلِ إنْ تُهمِلْه شَبَّ عَلَى حُبِّ الرّضَاع وَإنْ تفْطِمْهُ يَنفَطِمِ
فاصْرِف هواها وحاذِر أَن تُوَلِّيَـهُ إنَّ الهوى ما تَوَلَّى يُصْمِ أو يَصِمِ
كَم حسَّنَتْ لَذَّةً للمـرءِ قاتِلَـةً مِن حيثُ لم يَدْرِ أَنَّ السُّمَّ في الدَّسَمِ
وخالِفِ النفسَ والشيطانَ واعصِهِمَا وإنْ همـا مَحَّضَاكَ النُّصحَ فـاتَّهِمِ

أيها الإخوة:

الصدق طمأنينة والكذب ريبة، والصدق منجاة والكذب مهلكة، وللحديث عن الصدق تتمة إن شاء الله.

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «**اضمنوا لي ستّا من أنفسكم أضمن لكم الجنّة: اصدقوا إذّا حدّثتم، وأوفوا إذا وعدتم، وأدّوا إذا اؤتمنتم، واحفظوا فروجكم، وغضّوا أبصاركم، وكفّوا أيديكم**» [أحمد].

والحمد لله رب العالمين